الفرنكفونيَّة وتحدياتها للغة العربية في بلاد غرب إفريقيا

د. علي يعقوب *

مقدمة:

إنَّ اللغة بصفة عامة تؤدّي دوراً مهماً في بناء الحضارات وإنمائها، وهي انعكاس حقيقي لتقدّم الأمم أو تخلّفها، وإن مدى تداولها هو الكفيل بإحيائها وتطويرها، أو قتلها ودفنها، فهي لا تتجزأ عن الهوية الثقافية لأمّة من الأمم.

واللغة العربية من اللغـات العالمية التي بنت الحضارات فـي مشـارق الأرض ومغاربها، وذلك لمـا اختارها الله لخير كتبه، وخير رسـله صلى الله عليه وسـلم، فكانت لغة الإسلام والمسلمين في العالم الإسلامي، وقد شهدت عصرها الذهبي قبل الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي، وخصوصاً في إفريقيا الغربية، حيث استطاعت أن تفرض تفوقها على اللغات الأخرى في المنطقة، قبل مجيء الاسـتعمار الفرنسـي، وغيره، الذي وضعها فيما بعد تحت إدارته، وفرض عليها حالة من العزلة.

إن إفريقيا جنوب الصحراء قد عرفت الإسـلام في وقت مبكّـر من تاريخه، وذلك مع ظهـور الأفواج الأولى من معتنقي الإسـلام في القرن الهجري الأوَّل (السابع الميلادي)، وتحولّت اللغة العربية في غرب إفريقيا من لغة التجارة إلى لغة العبادات والعلـوم والثقافة، ولغة التعبير الرسـمي في عهد إمبراطورية غانا الإسلامية، ثم في عهد إمبراطورية مالي الإسلامية)فيما بين القرنين الحادي عشـر والثاني عشـر الميلاديين)، وبلغت ذروة مجدها في عهد إمبراطورية سنغي الإسلامية التي حكمت جلَّ أراضي غرب إفريقيا، وكانت تمتد من مدينة أغاديس شرقاً إلـى ما وراء تنبكتو غرباً، ومن أزواد AZWAD شـمالاً إلى الغابات جنوباً، وكانت هي اللغة السائدة في الممالك المختلفة التـي تعاقبت في الجزء الغربي من القارة، وهي السـائدة في الإدارة والقضاء، وفي المراسلات الرسمية، سواء كانت محلية أم خارجية.

ولكن مع دخول الاستعمار الغربي، وبخاصة الفرنسي، إلى المنطقة، في نهايات القرن التاسـع عشر الميلادي، أصبحت اللغة الفرنسـية لغة التعليم والإدارة والتواصل الرسمي في جلّ دول غرب إفريقيـا، وبذلك بدأت مرحلة عـزل اللغة العربية وتنحيتها من كلّ المواقع الرسمية، لكنها مع ذلك وجدت الملاذ الآمن عند السـكان المحليين، وهو ما كتب لها البقاء في دائرة ضيقة في بعض الدول.

ظـلّ تعليم اللغة العربية يتقدّم بخطى ثابتة، برغم الوجود الاستعماري وهيمنته على التعليم ومحاربته للتعليم العربي، في إطار النظام التعليمي التقليدي ذي الشقين: المدارس القرآنية ومجالس التعليم الإسـلامي الأهلي والتعليم النظامي الأهلي، والحكومي في بعض دولها.

وبعد اسـتقلال الدول الإفريقية حاول بعض حكامها أن يعيدوا للغة العربية مكانتها في المجتمع الإفريقي الإسـلامي، ولكن وقف أمام المحاولة الفرنكفونيون (دارسو اللغة الفرنسية) الذين تبوؤوا المناصب العليا بعد ذهاب الاسـتعمار، وهم من أبناء القارَّة، ولكن عقولهم وأفكارهم فرنسـية، بل كان بعضهم أشـد ضراوة وعداوة في محاربة اللغة العربية من الفرنسيين أنفسهم، لكن الشعوب لم تقف مكتوفة اليد أمام هذه الفئة، بل قاومتها بإنشـاء المدارس العربية النظامية العصرية، وما زال الكـرّ والفرّ بين الفئتين، كلّ فئة تحاول أن تثبت لغتها وثقافتها على أرض الواقع.

الفرنكوفونيَّة: النَّشأة والتَّطوُّر والأهداف:

يعود مصطلح الفرنكوفونيَّة Francophonie في نشأته إلى العالِم الجغرافي الفرنسـي «أونزيم ريكلوس» Onesime

(*) الجامعة الإسلامية بالنيجر.

Recluse (١٨٣٧م - ١٩١٦م) الـذي وضـع هـذا المصطلح منذ عام ١٨٨٠م، وذلك في دراسـته للغات العالَم، وأشار بهذا المصطلح إلى ظاهرة التوزيع الجغرافي للغة الفرنسيَّة في شتى أجزاء القارات الخمس، ونظـراً للمحيط العلمي البحت الذي وُضـع مصطلح الفرنكوفونيَّة في إطاره؛ فإن هذا المصطلح لم يُكتب له السَّـريان والشـيوع لا في المحيط العلميِّ والثقافي اللَّذين نشأ فيهما، ولا في مجالات علميَّة أو معرفيَّة أخرى.

أما اكتساب هذا المصطلح بعدَه الجديد وحضوره الفعليَّ؛ فقد حدث فـي أوائل النِّصـف الثاني من القرن العشـرين، وبالتَّحديد عام ١٩٦٢م في الوسـط السِّياسـيِّ والثقافي عبر كتابـات وتنظيـرات رجالات سياسـيَّة مؤثِّرة مـن غير أبناء فرنسا، على رأسهم: ليوبولد سيدار سنغور Leopold Sedar Senghor رئيـس دولة السـنغال الأوَّل بعد اسـتقلالها عام ١٩٦٠م، والحبيب بورقيبة رئيس جمهوريَّة تونس، وملك كمبوديا الأمير نورودم سـيهانوك Norodom Sihanouk، وحماني ديـوري Hamani Diori رئيس جمهورية النيجر، وشـارل حلـو Charles Helou، وجان مـارك ليجير Jean-Marc Leger مـن كندا الفرنسـية (كيبك)، الـذي أصبح - فيما بعد - السِّـكرتير العام للجمعية الثَّقافيَّة التقنية الفرنكوفونيَّة (ACTF).

عليه؛ فإنَّ الفرنكوفونيَّة سرعان ما تحوَّلت إلى حركة فكرية ذات بُعد أيديولوجي، تهدف إلى تخليد قيم (فرنسا الأمّ) في كلِّ مستعمراتها التي خرجت منها عسكرياً، وذلك من خلال اعتماد اللغة الفرنسـية بوصفها ثقافة مشتركة بين الدول الناطقة بها كلياً أو جزئيـاً[1]، وكان المنبر الفكري الذي صدح عليه أولئك السِّياسـيون وأمثالهم، وروَّجوا للفكر الفرنكوفوني من خلاله، مجلـة «روح» (Esprit)، خصوصاً في عددها الخاصِّ المعنون «اللغة الفرنسيَّة لغة حيَّة» Le Francais langue vivante، إذْ أشاد فيه «سـنغور» وأمثاله باللغة الفرنسـيَّة بوصفها لغة الفكر والحضارة الحقَّة، ودعَـوا إلى ضرورة تعميمها العولميِّ في جميع مجالات الفكر والثقافة، خصوصاً في المسـتعمرات الفرنسيَّة والشُّعوب التي ما زالت في سبيل النُّهوض الحضاري.

وهكذا؛ يظهر جليّاً تبلوُر هذا المصطلح على أيدي رجالات السياسة، وتجدُّد بعثه في إطارٍ علميٍّ حديث مختلف عن إطاره الأصـل، ومن الطَّبيعي أن تصاحب هذا الانزياح الاسـتعمالي للمصطلح إضافاتٌ معنويَّة وتوسُّـعٌ مفهومي في أبعاده، أبسط هذا التَّوسـع أن الفرنكوفونيَّة لم تعد تشير إلى التَّوسُّع البحت للناطقين بالفرنسـيَّة فـي مختلف بقاع الأرض فحسـب، أو بتعبير «أونزيم» نفسـه «الدُّول ذات الاستخدام المشترك للغة الفرنسيَّة» (Les Pays ayant en commun l'usage du Francais)، لم تعد الفرنكوفونيَّة تعني هذا المفهوم المبسَّط، ولكنها اكتسبت - فوق ذلك - أبعاداً سياسيَّة، وثقافيَّة، وفكريَّة متعدِّدة، ما زالت تتبلوَر وتتَّضح معالمها يوماً بعد يوم، وتتَّسـع طبقاً لتوسُّع التَّنظيم الفرنكوفونيِّ.

والفرنكوفونيَّة - شـأنها شأن أيِّ مؤسَّسةٍ إمبرياليَّة ذات اهتمامات وأهداف مختلفة - تشمل مؤسَّسات متشعبة سياسيَّة وثقافيَّة وفكريَّة حتى دينيَّة، ويخـدم أهدافها وبرامجها أفرادٌ ومجموعاتٌ كثيرة قد تستعصي على الرَّصد والحصر.

غير أنَّ من مؤسَّساتها الثَّقافيَّة والتَّعليميَّة المباشرة ما يأتي:

- مؤسسـة الأوبيلـف (AUPELF): وهـي منظمـة الجامعـات الناطقة جزئيّاً أو كليّاً بالفرنسـية، أُنشـئت عام ١٩٦١م، وتشـمل الجامعات والمعاهد العليا التي تدرِّس باللغة الفرنسـية، وتشـرف على برامج المنح الدراسـيَّة والأبحاث العلمية في شـتى المجالات، وقد أُطلق عليها مؤخَّراً مسـمّى «الوكالة الفرنكوفونيَّة».

- اللجنة العليا للغة الفرنسـيَّة أو المفوضيَّة العامَّة للغة الفرنسـيَّة (HCLF): أُنشـئت عـام ١٩٦٦م، وتضم الخبراء والأكاديميين، ومهمَّتها تقديم الاستشارات في سبيل الدِّفاع عن الفرنسيَّة، والترويج لها.

- الفيدراليَّة الدولية لكُتَّاب اللغة الفرنسيَّة (FIDELF): وهي جمعية أنشـأتها كندا في مونتريال عام ١٩٨٢م، لاحتواء مزيد من الكُتاب الفرنكوفونيِّين، وصرفِهم إلى الاهتمام بالأدب الكندي، والترويج له.

- جمعيَّة كتاب اللغة الفرنسيَّة (ADELF): وهي جمعية قامت علـى أنقاض ما عُرِف سـابقاً باسـم «جمعية الكتاب

(١) انظر: مجلة البيان، العدد ١٧٧، ١٧ يوليو - أغسطس ٢٠٠٢م، ص ٢٩.

المستعمرين» (Association of Colonial Writers) عام ١٩٢٦م.

- الوكالة الفرنكوفونيَّة للتعليم العالي والبحث العلمي (AUPELF-UREF): مقرُّها مونتريال بكندا، ومهمَّتها تطوير الدِّراسات والأبحاث العلميَّة بالفرنسية.

هذا، وإنَّ الفكر الفرنكوفونيَّ يستند إلى تاريخ طويل من الاستعلاء العرقيِّ واللُّغوي المهيمن على الفرنسيِّين، ولعلَّ الأدباء الفرنسيِّين - في العصر الاستعماريِّ - خير من ترجموا هذه النَّزعة بجلاء، وأفصحوا عنه بلا مواربة، ومن أولئك الكاتب الفرنسي رولاند ليبل Roland Lebel واضع أهمِّ مجموعة من المختارات الأدبيَّة الإفريقيَّة المكتوبة بالفرنسيَّة بعنوان (إفريقيا الغربيَّة في الأدب الفرنسي منذ ١٨٧٠م)، وكان ذلك عام ١٩٢٥م، وصرَّح أنَّ الهدف من هذه المجموعة هو خدمة الأهداف الاستعماريَّة، قال: «سوف تتضمَّن قيمةً اثنوغرافيَّة (عرقيَّة)، وتترجم عن نفسيات الأجناس في المجال الاستعماري، وحبُّ الاستطلاع الطبيعي ذاك، يكتسب أهميَّةً محدَّدة، ألا وهي: التَّعبير عن حاجة المعرفة المعمَّقة عن الأرض وعن ساكنيها، وهي معرفة ملزمة لهيمنتا»[١].

وقبل ذلك صرَّح الأديب الكلاسيكي فولتير Voltaire(١٧٠٠م - ١٧٨٨م) أن الفرنسية قد وصلت نقطة الاكتمال والاصطفاء على أيدي كبار أدبائها، أمثال: موليير Moliere (١٦٢٢م - ١٦٧٣م)، وراسين Racine (١٦٣٩م - ١٦٩٩م)، وأنها غير قابلة - بعد هذه المرحلة - لأيِّ زيادة أو نقصان، بل زعم «ريفارول» بقوله عن الفرنسية ونقائها: «إنَّ كلَّ ما ليس واضحاً فليس بفرنسيَّة»، كما أنَّ الاعتبارات الصَّارمة في اختيار أعضاء مجمع اللُّغة الفرنسيَّة، ومراسم تعيينهم، توضِّح هذا المنحى المتشدِّد، من ذلك أنه يُلبس المجمعيُّ الجديد حلَّة خضراء، ويقلَّد سيفاً كأنَّه مقدمٌ على قتال عدوٍّ مترصِّد باللغة الفرنسيَّة[٢].

وما نزال نرى هذا الحرص الشَّديد من لدُن المثقفين الفرنكوفونيِّين في الحفاظ على نقاء هذه اللُّغة[٣]، وما زالت تلك هي الرُّؤية الفرنسيَّة نحو لغتها وثقافتها، وإنَّ دراسة أيِّ لغة أخرى أو البحث في ثقافة أخرى إنَّما تهدف لتكريس الهيمنة الفرنسيَّة على تلك الشُّعوب، فإنَّ الفرنكوفونيَّة، بلا شكٍّ، هي الأداة الفاعلة في هذا المضمار، تسعى فرنسا بها إلى تهميش الثقافات واللغات والظهور على حسابها، لذلك فإنَّ فرنسا في العصر الاستعماريِّ لم تتوانَ في محاربة اللُّغات المحليَّة في كلِّ بلد تحكّمت فيها، وسعت إلى حظر تدريس تلك اللُّغات أو التَّعامل بها في المحافل الرَّسميَّة.

هذا، ولم يخْفَ موقف الاستعمار الفرنسي المعادي للُّغة العربيَّة والثَّقافة الإسلاميَّة في مستعمرات فرنسا؛ بوصف اللُّغة العربيَّة والثَّقافة الإسلاميَّة جزءاً لا يتجزأ من تراث تلك الشُّعوب وحضارتها، والشَّواهد التَّاريخيَّة في هذا المجال كثيرة، بل إنَّ الواقع الماثل يشهد بذلك في ترويج الفكر الفرنكوفونيِّ للغة العربيَّة وثقافتها بأنَّها مجرد لهجة أو لغة ميتة نادرة ومهجورة، وضعها يشبه وضع اللاتينية اليونانية القديمة، فهي غير مقروءة وصعبة، معقدة غير قابلة للاستيعاب، ولا تؤدي وظيفة التواصل، ولا تلائم الحضارة المعاصرة، وإنَّما تنحصر في مجال العبادة فحسب، يقول وليام مارسي: «إن اللغة العربية لغة المحكومين لا بد أن تختفي، فتترك مجالاً للغة الحاكمين، الفرنسية أكثر وضوحاً ونجاعة، والأقدر على تسيير الانتقال إلى الحضارة الحديثة»[٤].

مجمل القول: إنَّ الفكر الفرنكفوني عليه مآخذ واضحةٌ، تنطلق من طبيعة تأسيسه، وأهدافه المعلنة، وسياساته المرسومة، وتؤكِّد تلك المآخذ أنَّ الفرنكفونيَّة لَهي تهديدٌ مباشرٌ للُّغة العربيَّة، ولغيرها من اللُّغات بإفريقيا أو في غيرها من المناطق، ومن تلك الانتقادات الموجَّهة للفرنكفونيَّة ما سيأتي.

(١) انظر: Belinda Jack، Francophone Literature، p.١١

(٢) انظر: Jean-Louis Jubert، La Francophonie، p.١٣

(٣) لعلَّ من صُور هذه الحساسيَّة اللُّغوية لدى غير الفرنسيِّين الفرنكوفونيِّين ما قام به الرَّئيس سنغور عندما منع عرض فيلم محلِّي في السنغال لأنه لم يرقه تهجئة عنوان ذلك الفيلم، انظر: جريدة «لوموند "Le Monde" الخميس ٧ فبراير، ٢٠٠٢م.

(٤) انظر: www.la francophonie.org

أولاً: «الفرنكفونيَّة» مصطلحٌ مُضلِّل:

إنَّ أوَّل نقـدٍ يتنـاول الفكر الفرنكوفونـي هو المصطلح نفسـه، فهو مصطلح – كما سبق – نشأ نشأةً علميَّة بحتة على يد واضعه أ. ريكلوس، وعنى به التَّوزيع الجغرافي لانتشار اللُّغة الفرنسـية خارج حدود الأرض الفرنسـيَّة، ولكنَّ اجتلاب هذا المصطلح إلى حقله الجديد، وإكسابه أبعاداً سياسيَّة وثقافيَّة، وخدمته المباشـرة للهَيْمَنة الفرنسية؛ جعل كثيراً من المفكِّرين والأدباء والسِّياسيِّين يسـتاؤون من هذه «المحوريَّة الفرنسيَّة» فـي الفرنكوفونيَّة، ولأجـل ذلك أيضاً، وُجِـد كُتَّاب مرموقون رفضوا الانخراط في هذه المؤسسة، ورأوا في هذا الاصطلاح وصايةً فرنسيَّة على إبداعاتهم الأدبيَّة، يُذكر من أولئك الكاتبة الجنوب-هندية «ماريـز كوندي» Maryse Conde، والكاتب نبيل فارس (المغاربي).

ثانياً: الفرنكوفونيَّة أداةٌ حديثة للإمبرياليَّة الفرنسيَّة:

إنَّ أكبر مـا يوجَّه إلى الفرنكوفونيَّة كونها جهازاً لتحقيق اسـتمراريَّة هيمنة الإمبراليَّة الفرنسيَّة، وتأمين سيطرة فرنسا على الشُّـعوب الناطقة بلغتها، وفي ذلك يقول الشاعر المغربي عبد اللطيف اللعبي: «إنَّ الفرنكوفونيَّة تشكِّل حجر الارتكاز في الاستراتيجيَّة الاسـتعماريَّة الجديدة، فبحكم تجربتنا بوصفنا مستعمرين، فإنَّ الفرنكوفونيَّة بالنِّسبة لنا تتوافق بشكلٍ طبيعيٍّ مع بحيرة السَّـلام، والسوق المشـتركة: المحصلة التي تعني انبعاث الإمبراطوريَّة الفرنسيَّة»[١].

ثالثاً: الفرنكوفونيَّة أداةٌ لحماية فرنسا وتأمين مصالحها:

يُؤخذ علـى الفرنكوفونيَّة أيضاً – إلـى جانب كونها أداة جديـدة للاسـتعمار الفرنسـي – كونُها أداةً لحماية فرنسـا ومصالحها، وبخاصَّة ثقافة فرنسـا وسياستها ضدَّ التَّكتُّلات العالمية الجبارة التي تهدِّد وجود فرنسـا لغةً وثقافة، من ذلك التَّوسُّـع الكبير للثقافة الأنجلوساكسـونية، واللغة الإنجليزيَّة، على حساب التَّقلُّص الفرنكوفوني لغةً وثقافةً وسياسة.

هذا، وقد أوضح الرَّئيس الفرنسـي ميتران هذا المنحى إيضاحاً جليّاً في قمَّة الفرنكوفونيَّة في جزيرة موريشيوس Ile Maurice عام ١٩٩٣م، حين ذكَّر بدور هذه المؤسَّسة في صدِّ التَّوسُّـع الأنجلوفوني، والحدِّ من اسـتحواذ الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة الأحادي للقيادة العالمية بفرض ما تسمِّيه «عولمة»، وما تمليه من قوانين تجاريَّة عالميَّة (قانون الغاتّ مثلاً).

هـذا، وعلـى الرغم مـن كلِّ التَّحديـات التـي تمثِّلها الفرنكفونيَّـة أمام اللُّغة العربية والثَّقافة الإسـلاميَّة بإفريقيا الغربية أو بغيرها، فإنَّ الظُّـروف ما زالت مواتية للغة العربيَّة للتَّغلُّـب على تحديـات العولمة، من ذلـك أنَّ الحماس للفكر الفرنكفونيِّ وللغة الفرنسـيَّة وأدبها وثقافتها في تراجُعٍ مطَّرد، وانحسارٍ ملحوظ، مع تزايُد توسع الأنجلوساكسونيَّة في الإعلام والسياسـة والاقتصاد، وحسـب تصريح نائب رئيس المجلس الوطني الفرنسي، فإنَّ ذلك ليس حاصلاً في المجتمعات خارج فرنسا فحسب، بل في فرنسا نفسها[٢].

يُزاد على ذلك أنَّ تزايد الوعي بالتَّمسُّـك بالهويَّة ورفض الانسـلاخ قد دعا الكثيرين إلى التَّنازل عن الفرنسـيَّة وتبنِّي لغاتهم الأصلية، يسـتوي في ذلك الحكومات والأفراد، وتبرز هـذه الظاهرة في أجلـى صُوَرها لدى كُتَّـاب عرب (مغاربة خاصَّة) ناجحين توقَّفوا عن الكتابة بالفرنسيَّة وشرعوا بالكتابة بالعربيَّة، من أولئك: عبد الكبير خطيبي، وعبد اللطيف اللعبي (المغربيَّين)، وسـمير مرزوقي، وعبد الوهاب مدب، وصلاح غرمدي (التونسيِّين)، وصلاح سـتيتية الجزائري[٣]، لكنَّ في حين نشـاهد انحسـار الحماس للفرنكفونيَّة بكلِّ أشـكالها وأبعادها؛ فإنَّ محاولة حكومة عربيَّة خليجيَّة مؤخَّراً للانضمام إلى هذه المؤسَّسة يُنذر بما تسعى إليه الفرنكفونيَّة من أهداف بعيدة شاملة.

الفرنكفونيَّة ومظاهر تحدِّياتها:

إنَّ التَّحـدي الفرنكفوني للغة العربية، ولغيرها من اللُّغات بإفريقيا وثقافاتها، له جذورٌ بعيدة في المسـيرة الاستعماريَّة والإمبرياليَّة الفرنسـيَّة للشُّـعوب، ومن أبرز مظاهر المحاربة

---

(١) مجلة الآداب، ١١/-١٢ ٢٠٠١م، ص ٩٤، نقلاً عن مجلة «أنفاس» (Souffles)، مارس- أفريل، ١٩٧٠م.

(٢) انظر: Pierre-André Wiltzer. « Les Paradoxes de la Francophonie ». La Gazette de la Presse Francophone. No. ٩٦. p١.

(٣) مجلة الآداب الأجنبية، عدد (٢٢)، ١٩٩٩م، ص ٢٤.

الاستعماريَّة الفرنسيَّة للغة العربيَّة بإفريقيا خاصَّة، هي غرسُ المستعمِر في نفوس المثقفين بالثَّقافة الفرنسيَّة معاداة مقيتة للغة العربية والثقافة الإسلامية، سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين، فأبعد اللغة العربية عن الساحة الفكرية والسياسية، وفرض لغته ورفعها على غيرها، وجعل دارس اللغة الفرنسية هو المثقف الحقيقي، وأما دارس اللغة العربية فيُعامل كالأميّ مهما بلغت رتبته العلمية والثقافية، ومن هنا أبعدوه عن أية مشاركة في العمل الثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي في بلاده ومجتمعه، وجعلوا المكان المناسب له هو المسجد فحسب!!

بالمقابل؛ فإنَّ النخبة «المفَرْنَسَة» (francisé) هي صاحبة الحظ في كلِّ المجالات السِّياسيَّة والثَّقافيَّة، ولا يهمُّ أن تعيش هذه النُّخبة مغتربة وسط أهلها، بعيدة عن الواقع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي لمجتمعاتها، موالية بإطلاق للثقافة الفرنسيَّة التي ينتمون إليها[1] ولغتها الفرنسية، وهي مقتلعة من جذورها ومنقطعة عن هموم شعبها، متباهين بتقاليد فرنسا وعادات أهلها، بل رسخ في أذهانهم أن لا ثقافة ولا تاريخ خارج ثقافة فرنسا ولغتها.

عليه؛ لا يخفى أنَّ تحديات هذه النخبة «المفَرْنَسَة» لَمِنْ أكبر التحديات التي تواجه اللغة العربية ودارسيها في غرب إفريقيا، لأن مقاليد الأمور، سواء كانت سياسية أو تعليمية أو ثقافية بأيديهم، يتحكمون في وضع السِّياسات التَّعليميَّة، والبرامج الثَّقافية والتربويَّة كما يحلو لهم.

كذلك، يظهر التَّحدي أمام اللُّغة العربيَّة من قِبَل المؤسَّسات الكنسيَّة المسيحيَّة الخادمة لأهداف الفرنكفونيَّة، في توفيرها سُبل العلم بالمنح السَّخيَّة في جميع المجالات العلميَّة، وتوفير فُرص العمل لخريجي المؤسَّسات التَّعليميَّة الفرنسيَّة.

أمَّا دارس اللُّغة العربيَّة، إنْ وُفِّق في الحصول على منحة في بلاد عربية وجامعات إسلاميَّة؛ فلا يجد أمامه إلا تخصُّصين: اللغة العربية، أو الدراسات الشرعية، ولا بأس بذلك في حدِّ ذاته، ولكنَّ الزَّجَّ بجميع الطَّلبة الأفارقة الوافدين في تخصُّصين اثنين فحسب يثير إشكالات كثيرة لهم في دُوَلهم، أقلُّها أنَّ أبواب التَّوظيف توصد في وجههم، حتى المنظمات الإسلاميَّة للدَّعوة تعجز عن استقطاب معظم أولئك الخريجين في مجالات الدَّعوة والتَّدريس، ومن هنا يصبح خرِّيج المؤسَّسات التَّعليميَّة العالية العربية عالة على مجتمعه، ولا يكون حاله قدوة لغيره من الشباب الذين يرغبون في الدِّراسات الإسلاميَّة.

خلاصة القول؛ إنَّ اللغة العربيَّة قد قامت بإسهام مهمٍّ في نهضة إفريقيا وتقدّمها، وتألَّقت فيها الحضارة الإسلاميَّة قديماً في ممالكها المسلمة، مثل: مملكة مالي، وسُنغي، والدُّول التي جاءت بعدهما حتى حضور المستعمر الغربي، والذي أعلن منذ مجيئه حرباً ضروساً على الثَّقافة الإسلاميَّة واللغة العربيَّة التي كانت لغة الثَّقافة والسياسة بممالك غرب إفريقيا.

هذا، وإنَّ الفرنكفونيَّة لهي أداةٌ وسلاحٌ ماضٍ في هذه الحرب القديمة المعلنة على اللُّغة العربية والثَّقافة الإسلاميَّة بإفريقيا الغربية، وبغيرها من المناطق، ويتعاظم خطر هذا التَّحدِّي الفرنكفونيِّ باستخدام فرنسا «جنوداً مجنَّدة» من أبناء إفريقيا أنفسهم للقيام بهذه الحرب؛ بما غرسه في نفوسهم من انبهار باللُّغة والثَّقافة الفرنسيَّة، وازدراء بما دون ذلك من اللُّغات والثَّقافات.

عليه؛ لا يمكن التَّصدِّي لهذه التَّحدِّيات التي تمثِّلها الفرنكفونيَّة في وجه اللُّغة العربيَّة وغيرها من اللُّغات إلا بالمعرفة الحقيقيَّة لكُنه هذه المؤسَّسة بجميع أشكالها ومداخلها، ومن ثَمَّ مواجهتُها بالوسائل الحقيقيَّة المناسبة، وذلك أمرٌ ممكنٌ - بإذن الله -؛ لأنَّ كثيراً من الظُّروف ما زالت في مصلحة الإسلام واللُّغة العربيَّة، مثل: الإقبال الطَّبيعي من لدُن الشُّعوب المسلمة بإفريقيا على دراسة العربيَّة على الرُّغم من الإغراءات الكثيرة المعروضة لدارسي الفرنسيَّة، ومنها أيضاً: ضعف حماس الشُّعوب للفكر الفرنكفونيِّ ثقافيّاً وسياسيّاً، ومنها التَّحدِّي الأنجلوساكسونيّ للُّغة الفرنسيَّة وثَقافتها.. كلُّ ذلك يحفِّز القائمين على العمل الإسلاميِّ العربيِّ لمواجهة التَّحديات التي تمثِّلها الفرنكفونيَّة في وجه انتشار اللُّغة العربيَّة بإفريقيا.

(١) انظر: ندوة الإسلام والمسلمون في إفريقيا، كلية الدعوة الإسلامية - طرابلس / ليبيا ١٩٩٨م، ص ١٣٩.